نشأة الادب العربي بالمغرب

ليس من قصدنا في هذه العجالة ان نأتي على تاريخ الحركة الادبية في المغرب في هذه الازمان الحديثة التي اختلط فيها الشرق بالغرب وهبت نفحة عطرية من الادب الغربي على الأدب العربي فاكسبته وضوحاً وجلاء وعرفت أهله بمقداره الجليل فإن ذلك يحتاج الى طول دراسة وعمق بحث .

وإنما غرضنا من هذه الكتابة أن نعرف نشأة الأدب العربي في المغرب من قديم أعني على عهد الملوك والدول المستقلين وبعبارة أوضح منذ تربع الدولة الادريسية على عرش المغرب وتكونها دولة مستقلة في الجملة أسست الاساليب السياسية وأبرزت في المغرب الاقصى نماذج من حركات بغداد وبعض النظم من أنظمة أبي جعفر المنصور وسياسة الرشيد وأمثاله ممن شهد عملهم في الفتوح ونظامهم في البلدان المفتوحة.

ولكننا اذا اردنا أن نتكلم على تلك الحالة وذلك العهد فيجب علينا أن نقدم بين يدي القارئ مقدمة طويلة الذيل نتبين منها بحثنا ونرى كيف اثرت الثقافة الادبية في الفكرة السياسية في مغربنا وكيف أن السياسة من جملة مقدماتها الاسبابية ثقافة أدبية تنشر الآراء وتجلي المظاهر في النفوس والا فهي سياسة خرقاء لا تثبت على حال ولا يستقر لها قرار فنقول :

فرّ المولى ادريس من شرك الخليفة العباسي واتى المغرب الاقصى بعد طول مشقة وشدة تعب وهو مفعم حماسة وفخارا عازم على اقامة دولة ادريسية شريفة على نمط ما رأى وشاهد من النظم في بغداد ومصر .

تكوّنت هذه الفكرة في عقل المولى ادريس وأيدت بعزم راشد مولاه الامين الناصح الذي يقول جل المؤرخين انه رجل اتقن عقلا وتدبيراً وسياسة وحسن اقتدار على تأسيس دولة وانشاء مملكة ، وحقاً لقد كان راشد من اولئك الافذاذ العظام الذين ترتكز على همتهم آمال الشرفاء وتقوم على عاتقهم منشودات الشعوب وآمال المضطهدين.

نزل المولى ادريس وخادمه راشد في مدينة طنجة واراد ان ينشرا دعوتهما هناك ويبذرا بذورهما الشريفة في تلك البقعة فلم يجدا لها قابلا لان طنجة كانت مشهورة برجال الثورة ومعروفة منذ أتاها الاسلام بالخروج على الولاة الذين ارسلوا من قبل ملوك الشرق فلم يكن أهل طنجة بالقوم الذين يريدون تأسيس دولة وتنفيذ احكام وانما كانت امة تنظر الى نفسها وتابى أن يحكمها الطارئ عليها المخالف لها مذهباً ورأيا .

أضف الى ذلك ان طنجة في تلك الآونة كانت وطناً خالصاً للخوارج وكان أهلها طبعاً متشبعين من تعاليم الخوارج ومؤمنين بصدقها واخلاصها — والمبدأ الخارجي مخالف لروح المبدأ الادريسي — لهذه الاسباب وغيرها لم تصلح مدينة طنجة للدعوة الادريسية ولاي دعوة تشابهها في مبدإها كما كانت مستعصية في الجملة على جميع من أراد فتحها من الملوك المروانيين والشيعيين .

خرج المولى ادريس وذهب الى مدينة وليلي[1] وهي البلدة التي قبلت تربتها تلك البذور الادريسية التي ظهرت نتائجها للعيان ذلك أن مدينة وليلي وان كانت قديمة كطنجة فانها كانت وطناً لقبيلة بربرية ارتاحت لدعوة الاسلام الصحيح ووجدت فيه مرغوبها اضف الى ذلك ان دعاة الخوارج لم تكن دعوتهم مما يلائم طبع هذه البلاد وان صاحب زعامتها كان يؤمل ان ياتي ولد من ابناء

(1) Volubilis

فاطمة فيتنازل له عنها ، ولم يكن الخوارج يروقهم أن ينشروا مبدأهم بها لان طبيعة اهلها كانت كما قلنا (لامر الهي) مطيوعة على حب الراحة والسلام وكان كل ذلك في الاسلام وفي المولى ادريس وخادمه راشد فان راشداً هذا كان من الدعاة الذين يعرفون مداخل النفوس ومناحي التأثير على الغير خصوصاً وفي يده سلاح قاطع وهو الدعوة لرجل شريف فاتكل على ربه وبدأ مخاطبة القوم بهذا السر الذي كان يحمله من اقصى المدينة الى اقصى حجرة في المغرب وتعب فيه لانه عرف مقداره وجلالته والنتيجة التي يصل اليها اذا وجد معيناً من نفس البلاد فصادف من القوم قلباً خالياً فتمكن .

قضى المولى ادريس الاكبر تربيته كما يتربى اولئك الشرفاء ابناء علي في ذلك الوقت تحت البحث وتحت الضغط العباسي ، والانسان المضطهد اذا اكتسب نتيجة بعد النير الاستعبادي فانه يحتفظ بها ويولدها ويستخرج منها مسائل قلما يتنبه لها غيره ممن لم تقو فيه الشخصية العملية والاعتداد بالنفس.

شب المولى ادريس في بلدة نشأ فيها مثل الامام مالك وشيخه الاوزاعي وغيرهما من العلماء المجتهدين الذين كانوا يختارون مدينة الرسول بلدة لهم تعظيما لما خصها الله به وعرف الحياة هناك وسمع عن الحروب الكثيرة فاخرج في قالب فقيه ديني شديد الشكيمة ولغوي جيد قاهر الدليل يفهم الحديث كما يفهمه غيره من العلماء ويفسره كما يفسرونه ويستنتج كما يستنتجون وكان يحفظ كثيراً من اللغة ونوادر الاعراب وسمع من غير شك حروب الدولة الاموية بالتفصيل مع جده علي بن أبي طالب وعرف كيف كان ملوك الدولة الاموية يشردون اجداده ويقتلونهم وهم متمسكون بأنهم احق بالخلافة وانهم شعب الله المختار الذي اختاره لاقامة حدوده وحفظ حقوقه .

كان الشرفاء العلويون يعتقدون كل هذا ويومنون به أشد الايمان وكانوا يطلبون اضمحلال الدولة الاموية ويترقبون زوالها بل ويعملون على هدم كيانها وتشتت جموعها علّ الحكم يرجع اليهم بعد ما صرف عنهم طول هذه المدة .

فلما كانت الدولة العباسية فعلت بهم وهم ابناء عمها اكثر مما فعلت الاموية بأجدادهم وشردتهم بالقتل والنفي وكان المولى ادريس ينظر كل هذا ويتحرق كثيراً على ضياع الحكم من اسرتهم المكرمة وفقدان ظل التاج من أعلى رؤوسهم .

وكان راشد كذلك ممن يجالسون العلماء والاشراف والامراء وكان آخذاً حظاً وافراً من الثقافة العربية لذلك العهد فقد قالوا انه كان مستولياً على العلوم العقلية والنقلية واخذاً حظه من الادب والنحو واللغة والحديث والتفسير وكان اخا المولى ادريس من الرضاعة .

بعد ما فرغ المولى ادريس من امر البيعة وبعد ما اعتقد ان حبه تمكن من نفوس القوم اخذ في تفقيههم في الدين واعلامهم بما وجب عليهم نحو أهل البيت من المحبة الصادقة والاخلاص التام وفي الحقيقة ان سليمان بن جرير الذي ارسله الخليفة الماكر الرشيد باشارة وزيره الناصح يحي بن خالد البرمكي للفتك بالمولى ادريس بث في بربر وليلي وغيرها ممن هاجر اليها بعد ظهور ادريس بها شوقاً ما الى معرفة طريقة الجدل وشيء من العلوم الدينية فانه كان رجلا بارعاً في المجادلة ذا نبل وادب وفصاحة وكان يجالس مع المولى ادريس في المجالس الكثيرة ووجد فيه المولى ادريس انيساً لبقاً ومسامراً موافقاً وصار يطلق لسانه في سب خلفاء بني العباس ويضع احاديث كثيرة في الحط من قدر غير العلويين ويأتي بتفاسير من عنديته ليثبت فيها خلافة

المولى ادريس وتفوق الشرفاء على جميع الخليفة ، قال الشريف السنوسي في كتابه الدرر السنية في اخبار السلالة الادريسية ما نصه : قال في المسالك سليمان الجريري رجل من ربيعة كان متكلماً يرى رأي الزيدية وكان حلواً شجاعاً احد شياطين الانس فكان اذا جلس مع المولى ادريس بين رؤساء البربر ووجوههم يذكر فضائل اهل البيت وعظيم بركاتهم ويقيم الدليل على امامة مولانا ادريس ويأتي في ذلك بالحجج البينة والبراهين القاطعة وباحاديث وأخبار فأحبه إدريس وكان لا يأكل ولا يشرب الا معه ه .

خرج الناس بعد هذه المجالس الكثيرة عارفين لنوع من العلم يحفظون بعض الحديث وبعض جمل من القرآن الشريف ووفد على الدولة الادريسية من الاندلس وافريقية وفود كثيرة وكل هذا لم يثبت لدينا حالة ادبية علمية صحيحة كانت تنتظر من قيام الدولة الادريسية .

قال صاحب القرطاس وفي سنة ١٨٩ قدم على ادريس رضي الله عنه وفود من العرب من بلاد افريقية (أي تونس) وبلاد الاندلس في نحو الخمسمائة فارس من القيسية والازد ومدلج وبني يحصب وغيرهم الى ان قال فاستوزر منهم ادريس الاصغر عمير بن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وساداتها ولابيه مصعب مآثر عظيمة بافريقية والاندلس ومشاهد في غزو الروم كثيرة ثم قال منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي من قيس قيس عيلان وكان رجلا صالحاً ورعاً فقيهاً سمع من مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيراً ثم خرج (أي عامر ابن محمد بن سعيد) الى الاندلس برسم الجهاد ثم جاز الى العدوة فوفد بها على ادريس فيمن وفد عليه من العرب ولم تزل الوفود تقدم عليه من العرب والبربر من جميع الآفاق فكثرت الناس وضاقت بهم مدينة وليلي فابتنى فاس الخ وكل هذا يوضح لنا الحالة كما قلنا .

مات المولى إدريس الاكبر وخلفه ولده إدريس الثاني وقام بكفالته راشد وناهيك بشاب قام بتربيته مثل راشد الذي كان تثقف بالثقافة العربية وكان حسن الالقاء والتاثير فصيحاً في العبارة طلق اللسان يتدفق الكلام من فمه تدفق السيل الجارف قام بتربيته تربية استقلالية كما يقولون وعلمه الشعر ورواه أخبار العرب ونوادرهم في الشجاعة والجرأة فتحدد فكر المولى إدريس الاصغر وصار مثالا عالياً للنباهة والتفطن عالماً بالعلوم الاسلامية دارساً للتفسير والحديث حافظاً للقرآن وهو ابن ثمانية أعوام وقد قال صاحب القرطاس ان راشداً قتل قبل بيعة المولى إدريس وقام بكفالته بعده أبو خالد يزيد بن الياس العبدي وعقد له البيعة وهو ابن احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وقد روى صاحب القرطاس للمولى إدريس الاصغر بيتين من الشعر يذكر فيهما شجاعته الاصيلة وتعوده على الطعان والضرب وأن ذلك فيهم وراثي قال :

أليس أبونا هاشم شدّ أزره
وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب
فلسنا نمل الحرب حتى تملنا
ولا نشتكي مما ينول الى النصب

وأربعة أبيات أخرى خاطب بها بهلول بن عبد الواحد الذي استماله ابن الاغلب عامل الرشيد وأغواه بالمال على ترك بيعة إدريس وقد تركناها دفعاً للتطويل .

بقي إدريس هذا يجاهد في سبيل ربه ويجالد أعداء الله والرسول ويفتح الفتوح العظيمة وبنى مدينة فاس وصارت قصبته العظيمة وتقاطرت عليه الوفود من جميع الاصقاع منهم علماء وفقهاء ومنهم ومنهم ولكن الدولة الادريسية لم يكن عندها الادب كما كان عند خلفاء بني

العباس ملوك بغداد فلم يكونوا يؤيدون دولتهم بالشعراء كما يفعل ملوك مصر والاندلس ولم يكن للشعر عندهم مزية عظيمة كما كان للدول بعدهم .

وبالجملة فإن الادب لم يكن له حظ في قيام هذه الدولة كما لم يكن عند أولاد إدريس بعده وأحفاده ودولة بني أبي العافية المتوحشة بمكانة ذلك لأن هذه الدولة التي كان يريدها الادريسيون وأمثالهم يكفي في قبولها والتأثر بها لأمة جافة الطباع مثل البربر وقطر قاحل مثل المغرب اذ ذاك بعض أحاديث في مدح آل البيت وآيات قرآنية يدل بها أصحابها على صدق ولاية الادريسيين الاشراف أضف الى ذلك أن الامم البربرية اذ ذاك لم تكن تعرف العربية حتى تستمع إلى أقوال الشعراء في زخرفة الدولة وبهرجتها ولم يكن اذاً هناك حاجة للشعر فلم يكن شعراء .

بعد كل ما قدمنا تبين لنا أنه لم تكن هناك حالة أدبية ولم يكن هناك اعتناء بالشعر للاسباب التي ذكرناها ولغيرها نترك للقارئ استخارتها .

نستخلص من هذا أن المائتي سنة اللتين قضاهما الادريسيون في دولتهم الاولى مستقلين والثانية في الريف ولاة للشيعة العبيديين تارة وللمروانيين اخرى لم تجل فيها الناحية العلمية في شيء ولم ترتكز أساليب الدولة الادريسية فيها على العلم والادب وهذا ما ذكره جل المؤرخين .

ونحن نستنتج من هذا أن الدولة الادريسية لم تكن دولة علمية بالمرة ولم تكن تعرف أن للخلافة رابطة وثيقة بالعلم وإنما كانت دولة تريد أن تحكم المغرب حكماً جافاً لا شخصية للعلم فيه وعلى هذا فهي دولة بربرية باعتبار انشاءها أقرب منها عربية وان كان للمولى إدريس كاتب وقاض ووزير وبعض الوفود من العرب فإن هؤلاء لم يكن تاثيرهم على الشعب ليبعث فيه عاطفة العلم والادب وهو بربري محض.

وبعد فإن التاريخ لهذا العهد شديد الغموض كثير الاشتباك لا تتبين منه من بين غضون التواريخ سوى ولي فلان وعزل فلان ولا نعلم عن الحالة السياسية سوى هذا وأما عن الحالة العلمية فإننا نستنطق التاريخ عنها فيستعجم في الكتب التي بين أيدينا فنطلب ممن له إلمام بالتاريخ المغربي إذا رآنا قد أتينا بما يخالف معتقده في هذه الدولة أن يسعدنا على صفحات هذه المجلة بشيء عنها مفيد نستطيع منه بحجج قوية ومصادر صادقة أن نرجع عما نعتقده حول هذه الدولة المظلمة وحول بحثنا المفيد .

وموعدنا في البحث عن النشأة الادبية ومعرفة تكونها في مغربنا فيما بعد الدولة الادريسية العدد المقبل إن شاء الله فإننا سنبحث في هذا العهد بحثاً دقيقاً حيث أن الحالة المظلمة في التاريخ السياسي للمغرب هو عهد الدولتين المغراويه واليفرنية وأما دولة بني أبي العافية فلم تكن سوى دولة فتاكة من غير نظام تقتل الاشراف طلباً للدنيا فلم تصف لها الدنيا ولم تكن سوى دولة بربرية متهمجة كما لم تكن لها حالة سياسية منظمة ولا حالة أدبية بالمرّة بل زاد في زمنها توتر الجهل لأنها قتلت الاشراف ومن والاهم من العلماء الراحلين الى المغرب وغيرهم وقتلت نشأة العلم في مهدها .

محمد المهدي بن إدريس

— دواء —
الم الاسنان — ووجع الرأس
ونزلات البرد
والرماتسم

اسبيرين
« معامل الرون »

اشهر من ان يعرف بها
ـ تباع في سائر الصيدليات ـ